

الفلسفة النقدية وشروط الفلسفة المشروعة عند كانط

**Critical Philosophy and the Conditions of Legitimate Philosophy
According to Kant**

فيصل زيات*

جامعة تبسة/ الجزائر (fayssal.ziat@univ-tebessa.dz)

تاريخ الاستلام : 2018/01/15 ؛ تاريخ القبول : 2018/05/18 ؛ تاريخ النشر : 2018 /05/ 30

Abstract

المخلص

The aim of research is not only to transcend the conception of classical knowledge, but it is to highlight the importance of Kant's critical philosophy, the philosophy that builds knowledge on critical foundations and can play its effective role in building human knowledge.

The study concluded that the human mind has limits that it should not exceed, otherwise certainty and truth will be lost.

Keywords: Critical philosophy, Knowledge, Epistemology, Critical problem, Transcendental knowledge.

إن الهدف من هذا البحث ليس فقط تجاوز تصور التيارات الكلاسيكية للمعرفة. بل هو إبراز أهمية الفلسفة النقدية عند كانط، تلك الفلسفة التي تبني المعرفة على أسس نقدية، والتي يمكن أن تؤدي دورها الفعال في بناء المعرفة الإنسانية.

وتوصلت الدراسة إلى أن للعقل الإنساني حدوداً ينبغي ألا يتجاوزها وإلا غاب اليقين وضاعت الحقيقة.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة النقدية، المعرفة، الاستيمولوجيا، المشكلة النقدية، المعرفة المتعالية.

1. مقدمة:

لو أننا أمعنا النظر في الكثير من الكشوف التي استطاع عباقرة الإنسانية أن يهتدوا إليها في مضمار العلم والفلسفة والفن، لرأينا في هذه الكشوف من بساطة أو بداهة أو وضوح، ولقلنا في الوقت نفسه أن تكون البشرية قد انتظرت كل هذا الأمد الطويل لكي تهتدي إلى أمثال هذه الحقائق البسيطة، البينة الواضحة! وربما كان نقد العقل واحداً من أمثال هذه الكشوف: إننا نتعجب كيف قضت البشرية قروناً من الزمان قبل أن يخطر على بال أحد فلاسفتها أن يضع العقل تحت محك الاختبار، أو ينادي بضرورة امتحان قدرة العقل على المعرفة قبل استخدامه كأداة للوصول إلى أية حقيقة من الحقائق! وهذا هو العمل الذي قام به "إيمانويل كانط" (Emmanuel Kant) 1724 م -1804 م) حينما قام بفحص "العقل البشري" قبل الالتجاء إليه من أجل البرهنة على الكثير من الحقائق اللاهوتية والميتافيزيقية والغيبية، فلم تكن "الفلسفة النقدية" في أصلها سوى محاولة منهجية من أجل تعيين الحدود الدقيقة التي يصلح في نطاقها استخدام العقل كأداة للمعرفة.

فما أحجنا أن نأخذ في دراسة فلسفة "كانط"، و لكن من الصعب دراسة هذا الفيلسوف دراسة متقنة دقيقة بطريقة مباشرة، بأن نعلم إلى كتبه فوراً ونكتب على قراءتها ودراستها، والأفضل إذا أردنا أن نقرأه أن نبدأ قراءة ما كتب عنه، و أن يكون آخر ما يجب أن يقرأ ما كتبه "كانط" نفسه، لأنه لم يعمد فيما كتب إلى السهولة والوضوح.

كيف لا وهو الذي حدد "التنوير" بأنه تحرير الإنسان من اللارشد؛ الذي هو قصور الإنسان من الإفادة من عقله من دون غيره؛ لهذا يرى كانط أن التنوير هو الاستخدام الحر للعقل في كل قضاياها دون ضغط عليه.

هدف الدراسة:

والهدف من هذا البحث ليس مجرد عرض للمشكلة النقدية عند كانط، بل إننا نصبوا إلى تبيان أهمية وطبيعة الفلسفة النقدية ومشكلاتها وأصلها المتمثل في تساؤل كانط عن طبيعة المعرفة البشرية وحدودها، وانعكاساتها على العلوم وعلى تقدم المعرفة الإنسانية، من خلال دراسة ابستمولوجية.

إشكالية الدراسة:

ومما سبق يمكن طرح الإشكالية في التساؤل الرئيسي التي تأتي هذه الورقة البحثية للإجابة عليه على النحو الآتي:

هل يمكن تقديم معرفة متعالية عند كانط؟ وما هي مشكلة الفلسفة النقدية؟ وما مدى تأثيرها على ابستمولوجيا كانط؟ وهل يمكن الخروج من مشكلة العقل والتجربة عن طريق الدراسة الابستمولوجية؟

أهمية الدراسة:

يستمد موضوع هذا البحث أهميته من خلال معرفة الابستمولوجيا الكانطية، متمثلة في المعرفة المتعالية، وذلك بالتطرق إلى مختلف المشكلات التي تواجه العقليين والتجريبيين في عملية المعرفة وتجاوزها ابستمولوجيا، وصولاً إلى نتائج معتبرة.

منهج الدراسة:

لقد اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج التاريخي وهذا لتوضيح خصائص العلوم المذهب العقلي والتجريبي منذ القدم، إضافة إلى المنهج الوصفي التحليلي والابستمولوجي، الذي يقوم على جمع المعلومات وتحليلها وقراءتها قراءة نقدية ابستمولوجية ومن ثم استخلاص النتائج.

أ- المشكلة النقدية:

بعث "كانط" إلى صديقه "ماركوز هرتز" "M. Hertz" نسخة من كتابه "نقد العقل الخالص" ليطلع عليه، و كان "هرتز" متعمقا في دراسة الفلسفة معروفا بسعة اطلاعه و عمق تأمله ولكنه مع ذلك لم يكذبقرأ الكتاب إلى نصفه حتى أعاد "هرتز" الكتاب إلى صاحبه قائلا : " إنه يخشى على نفسه الجنون لو واصل قراءة الكتاب ... فإذا كان هذا هو الحال مع من اتخذ الفكر والفلسفة حرفة له فماذا نحن صانعون؟"، لابد أن ندنو منه في لحظة وحذر، ولنبدأ السير من نقط مختلفة على هامشه عن قلبه ولبابه.

الفلسفة ليست إثباتا، أو نفيا، بل هي تساؤل واستفهام، نستطيع أن نقول أن النقد "الكانطي" هو الفلسفة بعينها ، ما دامت مهمة "النقد" ، هي بيان تهافت كل من الاعتقادية من جهة والارتيابية من جهة أخرى من أجل الاتجاه نحو مساءلة العقل عن مدى قدراته . و الواقع أن "كانط" قد وجد نفسه بإزاء تيارين فلسفيين متعارضين : تيار الفلسفة الاعتقادية أو التوكيدية (dogmatisme) الذي

كان يمثلته الفيلسوف الألماني ("فولف" Johan Christian Wolf 1679 م - 1724م) وتيار الفلسفة الارتياحية (scepticisme) الذي كان يمثلته الفيلسوف الإنجليزي ("دفيد هيوم" D. Hume 1711 م - 1776م). و لا حظ أن الواحد منهما يثبت و يؤكد بينما الآخر ينفي و يسلب دون أن يكون لدى هذا أو ذاك أي أساس نقدي سليم يستند إليه في عملية الإثبات أو عملية النفي، و من هنا فقد وجد "كانط" أنه لا سبيل إلى الفصل في الخصومة العنيفة التي قامت بين أنصار كل من الطرفين، اللهم إلا بالالتجاء إلى محكمة النقد، من أجل القيام بعملية فحص شامل للعقل الخالص نفسه.

و حين يتحدث "كانط" عن النقد فإنه لا يعني به بطبيعة الحال نقد الكتب و المذاهب، بل نقد ملكة العقل بصفة عامة، خصوصا فيما يتعلق بتلك المعارف التي يحاول الوصول إليها دون الاستعانة بالتجربة، و من هنا فإن الموضوع الرئيسي الذي يدور حوله النقد "الكانطي" إنما هو الفصل في مشكلة إمكان قيام الميتافيزيقا أو استحالة قيامها بصفة عامة، مع الاهتمام بتحديد أصل هذا العلم و مداه و حدوده بالاستناد إلى مبادئ عقلية واضحة.

إنه يعبر عن هذا في كتابه "نقد العقل الخالص" كما يلي:

"لا أعني بهذا نقد الكتب و الأنساق الفلسفية بل ملكة العقل عامة، و ذلك بالنظر إلى المعرفة التي يسعى جاهدا إليها دون الاعتماد على أية تجربة، و تبعا لذلك سيقدر النقد إمكان أو امتناع قيام الميتافيزيقا عامة، و يحدد مصادرها و مجالها و حدودها، كل هذا يتم حسب مبادئ".

ب - فلسفة كانط النقدية :

لقد اتجه كانط مثل "لوك" John. locke (1632-1704) و "هيوم" David.H (1776-1711) إلى الفحص عن مصادر المعرفة الإنسانية وحاول أن يكتشف ردود العقل الإنساني وقدراته؛ ولكنه يختلف عن كل من "لوك" و "هيوم" في أنهما اتجها وجهة سيكولوجية، وذلك لتحليل عمليات الحس والفكر ورد الأفكار المركبة إلى الأفكار البسيطة، أما كانط فقد بدأ بالمعرفة اليقينية المطلقة، وهي معرفة لا يمكن أن تخضع للتفسير السيكولوجي. وإذن فقد أراد "كانط" أن يضع نظرية جديدة للعقل الإنساني تكون كافية لسد مطالبه وإنجازاته، و لكي نفهم نظريته الجديدة هذه، يجب أن نعرض بالتفصيل لقوى العقل. فالعقل عنده يتضمن ثلاث قوى رئيسية وظيفتها على الترتيب (الإدراك و فعل الإرادة و الشعور). أما الوظيفة الأولى للعقل فإن موضوعها هو كتاب "نقد العقل الخالص"، أما الإرادة و فعلها فهي موضوع كتاب "نقد العقل العملي"، يبقى الشعور يفرد له

كانط كتاب "نقد ملكة الحكم"، وإذن فكل كتاب من كتبه النقدية الثلاث مرتب إلى وظيفة في العقل وهذه الوظائف أو القوى هي: العقل والإرادة والشعور.

دأب مؤرخو الفلسفة على اعتبار المسألة النقدية مرادفة لنظرية المعرفة، مادام المقصود بها هو مجرد فحص الملكة العاقلة واختبار قدرتها على المعرفة. ولكن "كانط" نفسه قد وسع من دائرة الفلسفة النقدية، فذهب إلى أنها تنصرف إلى أسئلة ثلاث : ماذا يمكنني أن أعرف ؟ ماذا يمكنني أن أفعل ؟ ماذا يمكنني أن آمل ؟ هي حسب "كانط" المشكلات التي يعالجها العقل. إنها تمثل على التعاقب مشكلة المعرفة و المشكلة الخلقية و المشكلة الدينية. المشكلة الأولى منها تخص العقل النظري، و الثانية العملي فقط، و أما الثالثة فتخص النظري و العملي معا ، و لم يكن "كانط" بعد قد اكتشف الملكة الثالثة من ملكات الذات الإنسانية (ألا و هي ملكة الوجدان أو الحكم الجمالي) ، التي سيتناولها بالتفصيل في كتابه النقدي الأخير " نقد ملكة الحكم" ومهما يكن فإن الفلسفة النقدية تريد أن تستوعب شتى مجالات المعرفة البشرية .

(ج) - المشكلات النقدية الثلاث :

الأصل في الفلسفة النقدية هو تساؤل "كانط" عن طبيعة المعرفة البشرية، و قيمتها وحدودها، وعلاقتها بالوجود، ورأينا أن "كانط" قد اعتبر هذا التساؤل أمرا ضروريا لكل من يريد استخدام العقل في اكتساب أية معرفة من المعارف، فإنه لا بد لنا من امتحان أداتنا في المعرفة، قبل الوثوق بها أو الاعتماد عليها، لذلك علينا أن نطرح سؤالا ضروريا لمعرفة الأسس التي بنيت عليها فلسفة كانط ، أو ما هو الأصل في وضع المشكلة النقدية؟.

أمران قاما في ذهن "كانط" و اعتبرهما حقيقتين لا نزاع فيهما، و هما الأخلاق و العلم . أما الأخلاق - التي لم يكن يفصل بينهما وبين الدين - فقد تبدت له أمرا واقعا ولا يستطيع أن يزعمهما أي استدلال، ولقد كان يحلو له طوال حياته أن يردد هذين البيتين من شعر "جوفنال": " صدقني، أن أشنع الآثام أن تؤثر العيش على الشرف، وأن تضحي بمبادئ السلوك حرصا على الحياة" إذ يرى "كانط" أن الوجود ليس موضوع الفلسفة المباشر، وإنما موضوعها العلم والأخلاق، إذ أن وجودهما الواقع هو نقطة البداية عند الفيلسوف، وهو لا يتساءل عما إذا كان العلم والأخلاق ممكنين، وإنما يتساءل: كيف كان العلم والأخلاق موجودين وما أصولهما، وكيف نفسر وجودهما؟ أمران تستطيع الفلسفة أن تدرسهما و تحللها و لا شك في وجودهما، لكن المشكلة هي كيف نوفق بين العلم و الأخلاق؟ فالعلم و الأخلاق شيان لا تجانس بينهما، بحيث نجد العلم يقوم على

الرياضيات و التجربة الضرورة، بينما الأخلاق تقوم على عالم يتجاوز المحسوسات الحرة، بالتالي نجد العلم و الأخلاق متناقضين .

انتهى "هيوم" إلى التشكيك حين رأى أحد هذه المتناقضات أي التعارض بين قانون الفكر وقانون العلية: رأى هيوم أن العلية لا تجانس الفكر ولكنها متضمنة في معرفة الأشياء كلها، وإن يتمتع على الذهن أن يعرف الأشياء بيقين. هذا الانتهاء إلى التشكيك لا يقبله "كانط"، لأن المسألة عنده ليست أن ننظر فيما إذا كان من اللازم أن نحافظ على يقين العلم والأخلاق، وإنما اللازم في نظره أن نوفق بينهما، لأنهما أمران واقعان (données) و التوفيق بينهما أمر واقع، و يقول كانط: "أننا نعرف من أول الأمر أن شك هيوم لا يمكن أن يقبل لأنه يهدم العلم والأخلاق".

و على هذا النحو توضع المشكلة النقدية، كيف كان العلم ممكنا ؟ كيف كانت الأخلاق ممكنة؟ وكيف كان الاتفاق بين العلم والأخلاق ممكنا ؟ " كيف " بمعنى على أي الأسس يقوم العلم و الأخلاق بحيث يكونان مؤلفين من عناصر متناقضة في الظاهر؟

لقد قام كانط بنقد العقل "كانط" وبذلك يكون قد اقترح منهج جديد كان قد تبلور في ذهنه بصورة واضحة ولكي نفهم منهجه المقترح علينا أن نشير إلى نظريته المعرفية وهذا ما سأتناوله في المبحث الثاني من هذا الفصل، و كأننا أمام ثورة كالتى أحدثها "كوبرنيك" Nicolas Copernicus (1473م - 1543م) في علم الفلك بحيث جعل الفكر حاصلًا بذاته على شرائط المعرفة، و أن الأشياء تدور حوله لكي تصير موضوع إدراك وعلم، ولا يدور هو حولها كما كان المعتقد من قبل، ولكي يقرب هذا المذهب إلى الأذهان ويصح ما جرى من الأخطاء في فهمه، وضع رسالة أسماها "مقدمة لكل ميتافيزيقا مستقبلية تريد أن تكون علما" (1783).

(د) - الأهمية التاريخية للمشكلة النقدية:

للمشكلة النقدية أهمية تاريخية من عدة وجوه :

أولاً: تعد فلسفة "كانط" النقدية نتيجة للنزاع بين العقلين والتجريبيين، وقد جاء فكر كانط يمثل جهد الذهن البشري للتوفيق بين هذين التيارين المتعارضين في الفلسفة، وهذا ما سنتناوله في المبحث الثاني من هذا الفصل.

وقد وقع هذان المذهبان في صعوبات خطيرة، ولم تستطع المدرستان أن تتغلبا عليها. فتساءل "كانط" عما إذا كانت المسألة موضوعة وضعاً غير صحيح، وعما إذا لم يكن من قبيل الوهم أن

نتخيل رابطة معرفة بين الذهن والأشياء الخارجة عنه أو الأشياء كما هي عليه. فمذهبه يبدو لنا نتيجة لهذه الدراما الفلسفية الكبيرة القائمة بين العقليين والتجريبيين في إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر.

ثانيا: تعد فلسفة "كانط" نقطة بداية لنظريات الفلسفة الألمانية، والمشكلة التي تشغل المنزل الأولى عند الفلسفة الألمانية هي تفسير إمكان علم "أولاني" للطبيعة، ومع أن كانط قد احتج من قبل على المثالية القطعية التي نستخلص من قوانين الفكر قوانين الوجود إلا أن هذه المثالية ناشئة منه، ولا يمكن تجاهل الأهمية التاريخية لفلسفة "كانط" في هذا الصدد.

ثالثا: وأخيرا لفلسفة "كانط" على العموم قيمة تاريخية من حيث أنها نقطة بداية لكل الفلسفات النقدية التي أدت مهمة كبيرة في تاريخ الفكر الحديث، والتي مازالت في شتى العصور، باقية إلى أيامنا هذه.

العقل والتجربة: مشروع التوفيق والمعرفة المتعالية.

لقد ظهر الموقف النقدي المزدوج تجاه التيارات الفلسفية السابقة "لكانط"، بسبب ملاحظته الدقيقة فيما يخص سعي كل من العقلانية والتجريبية وضع نظرية معرفة خاصة بهما، تؤدي نتائجها إلى دحض الأخرى، ولم يقف الأمر عند هذا الاستبصار العميق، وإنما كشفت له الفروض التي يستند إليها كل تيار من تلك التيارات عمق التعسف والمبالغة في الانكفاء على الفروض والاعتصام بها حجة على صواب المنطقات، وسجل ملاحظته النقدية بصدد كل تيار؛ فقد تجاوزت الفلسفة العقلية حدود العقل وطاقتها فادعت إمكان الوصول إلى إثبات كيانات لا يمكن بطبعها أن تكون موضوعا للتجربة، مثل: الله، الحرية الإنسانية، خلود النفس، وغير ذلك. فيما ربطت الفلسفة التجريبية كل شيء بمعطيات التجربة الحسية ولم تترك وجود مبادئ متعالية هي الإطارات التي لابد لمعطيات الحس من الدخول فيها كي تصبح مدركات. وبإزاء هذا التعارض القائم في بنية الفروض والنتائج اكتشف "كانط" وجود أحكام ليست تجريبية ولا تحليلية، ودعاها باسم "الأحكام التركيبية القبلية": وهي تركيبية لأن محمولاتها غير متضمنة في موضوعاتها، وهي قبلية لأنها ليست مستمدة من التجربة، وهنا حل "كانط" مشكلة جديدة ظهرت له، وهي كيف تكون الأحكام التركيبية القبلية ممكنة؟.

وتمثل الحل بأنها تكون ممكنة إذا أمكن بيان أن المعرفة الإنسانية تعتمد على تصورات ليست تجريبية الأصل، وإنما أصلها في الذهن الإنساني. صحيح أن كل معرفة تبدأ بالتجربة، ولكن

هذا لا يعني بالضرورة أنها تنشأ عن التجربة. ذلك لأن التجربة تقدم معطيات منفردة مختلطة مثل الألوان والأضواء والليونة والصلابة ... الخ. ولكن العقل بما ركب فيه من إطارات مغروسة في طبيعته هو الذي يؤلف بينهما ويرتّبها ويحولها إلى تصورات لموضوعات. إن العقل يتلقف الانطباعات الحسية منفصلة لا رابط بينها ولا ترتيب، لكنه ما يلبث أن يعمل فيها عمله فيرتّبها ويوحدها ويربط فيما بينها، وإلا لظلت خليطاً غامضاً غير متميز.

وبما أن فلسفة "كانط" تنهض في أساسها على صور وهياكل وكيانات، فمن المفيد الوقوف على الوظيفة الإجرائية المنهجية التي تمارسها المعرفة المتعالية لأنها تتصل بالموضوع الذي وقفنا عليه منذ قليل، وهو الأحكام القبلية التي اكتشفها "كانط"، وعلى هذا فإن "كانط" يقول:

"أسمي متعالية كل معرفة لا تعنى بالموضوعات بقدر ما تعنى بطريقة معرفتنا للموضوعات، من حيث أن هذه الطريقة للمعرفة يجب أن تكون ممكنة قبلياً".

ويعلق "بدوي" (1917-2002م) على ذلك بقوله: "إن المتعالي هو السابق على التجربة، ولكنه دخل نطاق العقل، والمعرفة المتعالية هي الخالية من كل عنصر الإحساس، والمبدأ المتعالي هو المبدأ الذي بواسطته يتمثل قبلياً كل الشروط العامة التي بها وحدها يمكن للأشياء أن تصير موضوعات. الفلسفة المتعالية هي علم إمكان المعرفة التركيبية القبلية، إنها لا تبحث في الموضوعات بل في الأصول التي عنها تنشأ قبلياً المعرفة وحدودها. وهي نظام للمعرفة يعرض بطريقة قبلية موضوعات العقل المحض في نظام مرتبط ارتباطاً ضرورياً. وهي جزء من الميتافيزيقا النظرية، وموضوعها الرئيس هو: كيف يمكن للأحكام التركيبية القبلية أن توجد؟".

تستأثر « المفاهيم » أو « التصورات » _ باعتبارها من « المقولات » الأساسية في فلسفة "كانط" كونها الروابط الضرورية بين الموضوع ومحموله، أي بين وجود الأشياء وتصوراتها الذهنية _ بمكانة مهمة، فهي عنده الوسيلة التي يتمكن بها الإنسان إدراك الأشياء. وتترتب إستراتيجية المفاهيم في فلسفته من خلال ممارستها للربط بين ما في الأذهان وما في الأعيان، فتجاوز ثنائية المعطى العقلي والمعطى الحسي، سعى لإيجاد حد أوسط بين المعطيين وجعل « الفهم » أداة للربط بين الحدس الحسي والمدرّك العقلي، ثم جعل « الحساسية » و « الفهم » يمارسان وظائف يكمل بعضهما الآخر، فالحساسية تجهز مادة المعرفة، والفهم يجهز صورتها، فلولا الحساسية لكانت المعرفة غير ذات موضوع، ولولا الفهم لصارت المعرفة غير قابلة للنقل، وعلى هذا يقرر "كانط":

إن المفاهيم بدون حدوس حسية جوفاء، والحدوس الحسية بدون مفاهيم عمياء. وليس في

إمكان « الفهم » أن ينطوي على حدوس حسية، كما أنه ليس في إمكان « الحساسية » أن تنطوي على مدركات عقلية، وإنما تتولد « المعرفة » من اتحادهما معاً بحيث ستحيل « الإدراك الحسي » إلى « التجربة ». فالمعرفة البشرية عنصران أساسيان؛ عنصر الحدسي أو العيان المباشر، وعنصر المدرك العقلي أو « المفهوم ». وليس في استطاعة « المفاهيم » أو « التصورات » أن تمدنا أية معرفة في استقلال _ تام عن العيان المباشر أو الحدس الحسي المقابل لها، كما أنه ليس في استطاعة الحدس الحسي أن يمدنا هو الآخر بأية معرفة في استقلال تام عن المفاهيم والتصورات. ولكن المهم أن يدرج الحسي تحت تصور عقلي يحدد صورة الحكم بصفة عامة، وبذلك يخلع عن الأحكام التجريبية صدقاً كلياً أو شرعية عامة.

إن "كانط" يؤمن بموضوعية العالم الخارجي، إلا أنه يرى أن قوانين الذهن لا توصلنا إلا إلى معرفة « الظواهر » على نحو ما هي « مشروطة » بمقولاتنا الذاتية، ومعنى هذا أن « وحدة الذات » هي الدعامة الوحيدة لكل معرفة. وعليه فإن الاستعمال المشروع لمقولات الذهن كامن في التجربة وليس متعال عليها. ولهذا لا يجوز تطبيق المعاني الأولية إلا على موضوعات التجربة التي تنتجها الإدراكات الحسية، ويعد استخدامها غير مشروع إذا طبقت المقولات على موضوعات متعالية، لأنها ستفقد كل ما لها من معنى وقيمة، فالقول مثلاً بأن الله « جوهر » أو ليس بجوهر، وهو نوع من الحكم الخالي من المعنى ما دامت مقولة « الجوهر » لا تعني شيئاً معقولاً خارج نطاق الإدراك الحسي الذي لا سبيل له إلى بلوغ المطلق. وكل ما يتصل بعملية الاستنباط الصوري للمقولات يهدف منه "كانط" إلى البرهنة على قوانين الطبيعة _ وهي القضية الأساسية في فيزياء نيوتن _ إنه يريد إثبات العلاقات الضرورية القائمة بين الظواهر بعضها على أثر بعض، أو مجرد فرض نسبي مشروط يستند إلى تجربة عرضية محددة، وإنما هي معنى أولي يربط عن طريقه الذهن تلك الظواهر المتعاقبة في الطبيعة بروابط ضرورية حتمية، ولولا ملكة الذهن التي تتضمن المقولات لما أمكن إدراك معنى « الطبيعة ». ولما كان الذهن هو الذي يملئ قوانينه العامة بشكل أولي على الطبيعة. فليس بدعاً أن يكون الأساس في كل معرفة هو مجموعة القضايا الأولية المطلقة التي تعترضها سائر المعارف الأخرى، وهذه القضايا الأولية هي ما سماها "كانط" « مبادئ الفهم المحض ».

هنا تكون خلاصة "كانط" الفلسفية: إخضاع العالم التجريبي لقوانين عقلية محددة وفي الوقت نفسه رفض الادعاء بأن المعرفة العقلية قادرة على إدراك عالم ما وراء الظواهر المحسوسة. فالذات

المتعالية باعتبارها حجر الزاوية في عملية المعرفة هي التي تعطي للعالم مضمونا يمكن إدراكه عقليا، لأنها هي القادرة على رد المضمون العقلي للعالم إلى مجرد علاقات عقلية صرفة.

خاتمة:

إن ما يهمنا اليوم ونحن نعيش في عصر تأزم فيه الفكر وغابت عنه فعاليته، مدعوون للرجوع إلى المشروع الكانطي، وهاته العودة لا تكون بطريق الاجترار والنفي لهذا الفيلسوف، بل علينا إعادة وترتيب هذا البرنامج وفق واقعية الحياة وفق تعامل تاريخي نقدي، تعامل يتفهم فعالية "النقد المزدوج"، كما يستلهم بكل وعي المنجزات النظرية لتاريخ الفلسفة، ويبيد وفاء العميق لفعالية الإنسان النظرية، بدون أن يغفل متناقضات اللحظة التاريخية الراهنة (في داخل والخارج).

وتبقى المادة الخام التي استوحى "كانط" دراسته منها على حد تعبير "إميل بوترو" ليست الوجود، بل هي أولا وقبل كل شيء نظرية المعرفة، والمقصود أنه لم يبحث في الواقع بل كان ضمن دائرة الممكن من الناحية العقلية وهذا ما جعلها مثالية متجاوزة النسق الفيزيائي النيتوييني رافعة مفاهيمها الأساسية إلى مستوى المطلق، ومن ثم لا بد من الرجوع إلى التراث الكانطي الذي لا يمكن إغفاله، فنحن اليوم حقا بحاجة إلى مفكر مثل "كانط" بما حققه في عصره من نجاح، على الرغم من العقبات

قائمة المراجع:

- 1- أغناطيوس بوخينسكي، تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا، تر: محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، تونس، (د. ط. ت).
- 2- إميل بوترو، فلسفة كانط، تر: عثمان أمين، الهيئة العامة للكتاب، مصر، (د. ط)، 1972.
- 3- إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، تر: موسى وهبة، مركز الانماء القومي، بيروت، لبنان، ط2، 1987.
- 4- زكريا إبراهيم، كانت أو الفلسفة النقدية، دار مصر للطباعة، القاهرة، مصر، ط2، 1972م.
- 5- زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، لجنة الترجمة للتأليف والنشر، القاهرة، مصر، (د ط)، 1936م.
- 6- عبد الرحمان بدوي، إيمانويل كانط، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1977م.

- 7- عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلاسفة، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1984م.
- 8- عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية إشكالية الكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997م.
- 9- علي عبد المعطي، الفلسفة الحديثة من القرن 17 إلى القرن 20، منشورات المعارف، الإسكندرية، مصر، (د.ط)، 2001م.
- 10- كامل محمد عويضة ، إيمانويل كانط شيخ الفلسفة في العصر الحديث ، دار الكتب العلمية للنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1994م.
- 11- محمد جلال شرف، محمد محمود قاسم، قراءات في فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، دار المعرفة الجامعية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت).
- 12- محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي: الفلسفة الحديثة، دار المعرفة الجامعية للنشر، بيروت، ج4، (د.ط)، 1996م.
- 13- محمود فهمي زيدان، كانط وفلسفته النظرية، دار المعارف، الإسكندرية، مصر، ط1، 1968م.
- 14- محمود فهمي زيدان، كانط وفلسفته النظرية، دنيا الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط2، 2004م.
- 15- ول ديورانت، قصة الفلسفة، تر: فتح الله المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط5، 1985م.
- 16- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5، 1982م.